علاء حليحل*

ثلاثون عاما على حركة الفهود السود:

انتفاضة اليهود الشرقيين

توطئة

كنا تناولنا في مقالة سابقة (قضايا اسرائيلية عدد ٢) موضوع «هكيشت هدمكراطيت همزراحيت» (المجموعة الديمقراطية الشرقية)، وتأسيسها كرد فعل مبرمج ومبلور على سياسة التمييز التي اتبعت وما تزال، تجاه اليهود الذين قدموا من الدول العربية بالأساس والذين يُعرفون بـ «السفاراديم» أو اليهود الشرقيين. وقد حققت «هكيشت» انجازات جمة في هذا المجال، وهي تشكل اليوم الرد البارز، من ناحية الطرح ومن ناحية العمل الميداني، على المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة، التي تدفع على الغالب المصالح التي تخدم اليهود الذين قدموا من الدول الغربية وأميركا، والذين يُعرفون بـ «الأشكناز».

اللافت للنظر هو ثبات «هكيشت» كطرح بديلي ونموه، إن كان من الناحية التنظيمية وإن كان من الناحية التنظيرية على السواء. هذا مرده، في القليل من مجمل العوامل، الى وعي المؤسسين لأهمية العامل التنظيمي وبلورة قاعدة تنظيرية تأتي من أجل قيادة التغيير وليس الاحتجاج على الواقع، مبتور الصلة بالعمل الميداني. هذه الأمور لم يفهمها مؤسسو مجموعة الشباب السفاراديم من حي المصرارة في القدس، والذين عُرفوا بعد أول تظاهرة لهم في القدس باسم «الفهود السود». من هنا فان ربط التجربتين بقواسم مشتركة، وربما بقواسم مفرّقة، ليس عشوائيًا ولا يأتي من باب الاضطرارية البحثية الهادفة أو المغرضة. تشارلي بيطون وسعاديا مرتسيانو من «الفهود السود» في السبعينيات، لا يختلفان في الجوهر عن يوسي دهان ويهودا شنهاف من «هكيشت» اليوم. الاختلاف يكمن في الرؤية لما بعد الاحتجاج، وربما بالذات في انعدام الرؤية عند «الفهود السود».

في هذا الاستعراض، سأقوم بطرح تجربة «الفهود السود» من خلال ثلاثة محاور: المحور الأول، الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي سادت قبل ومهدت لنشوء مجموعة «الفهود»؛ والمحور الثاني هو طرح «الفهود» وأسباب اضمحلالهم ونهايتهم كحركة احتجاجية جماهيرية؛ والمحور الثالث هو العلاقة المتبادلة بين «الفهود» والمؤسسة الاسرائيلية على مختلف أذرعها والعلاقة بين «الفهود» وبين مجموعات يسار اسرائيلي صهيوني وغير صهيوني.

* كاتب فلسطيني مقيم في حيفا

في البدء كان التمييز

بدأت الهجرة الصهيونية الى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، وعند اعلان اقامة دولة اسرائيل وصل عدد السكان اليهود الى ٦٥٠٠٠٠ شخص. وكانت موجات الهجرة المختلفة مكونة بالأساس من مهاجرين من الدول الأوروبية، الا أن حوالي (٢٠٪) من السكان اليهود عند اقامة الدولة كانوا من الشرقيين. وكانت هذه مجموعة «السفاراديم» مكونة من المستوطنين القدامى وقسم آخر من المهاجرين الجدد نسبيًا، وبالأخص من اليمن. وقد حظيت هذه الهجرة بتشجيع خاص من المؤسسة الاسرائيلية التي أملت في أن تحتوي أفواج الهجرة على عمال يكون بوسعهم منافسة العمال العرب في النجاعة وانخفاض الأجور. (١)

وفورًا، بعد انتهاء الانتداب البريطاني، بدأت هجرة حرة الى فلسطين، وارتفع عدد السكان اليهود عند اعلان دولة اسرائيل من ٦٥٠٠٠٠ الى ١٥٠٠٠٠٠ في ١٩٥١، والى ٢٠٠٠٠٠٠ في ١٩٥٨ والى حوالي ٣٠٠٠٠٠٠ في ١٩٧٣. هذه الهجرة الحثيثة والكثيفة، غيرت من التقسيمة الداخلية لليهود في دولتهم حديثة العهد، حيث شكل المهاجرون من أوروبا وأميركا في العام ١٩٤٨ (٨٩,٦٪) فيما شكل المهاجرون من آسيا وأفريقيا (١٠,٤٪) فقط. ولكن بعد ١٩٤٨ شكل المهاجرون «الاشكناز» (٤٨,٤٪) والمهاجرون «السفاراديم» (٥١,٦٪) (نشرة الاحصائيات السنوية، ١٩٧٣). معظم المهاجرين «السفاراديم» كانوا ذوي مستوى ثقافي ومهني متدنيين نسبيًا لدول الغرب. كما أن هؤلاء المهاجرين وُصفوا على يد باحثين اسرائيليين في علم الاجتماع بأنهم تقليديون، متدينون، حمائليون وبشكل عام غير متطورين (بن دافيد، ١٩٥٣). وفور وصولهم الى اسرائيل كان عليهم الاندماج في الحياة العامة وتبني المفاهيم والرموز السائدة. ولكن الاندماج المذكور انحصر في مواقع سلبية وخاملة وغير ذات تأثير. وكان هناك بون شاسع بين الخطابة الاسرائيلية حول كونهم شركاء في الدولة ومؤسساتها وبين كونهم على أرض الواقع في مكانة متدنية، اقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا.

ومن المهم التأكيد على أن الفوارق المذكورة نبعت نتيجةً من تكون المبنى الطبقي في الدولة الحديثة. فقد طورت اسرائيل في ذلك الوقت سياسة نمو اقتصادي سريع من أجل الوصول الى استقلال اقتصادي. وهذا تم عن طريق تشجيع استثمارات الرأسمال وجذب ممولين من الخارج– كل ذلك عن طريق خلق ظروف استثمار جيدة والتي تتم عن طريق خفض الأجور وبالتالي تخليد مستوى الحياة المتدني عند الطبقات

«كفى للفقر» – منظمة الفهود السود – الشعار على جدران القدس ١٩٧٠

الضعيفة. وهذا ما حدث في النهاية، وعلى مسارين: الأول اتساع رقعة وهيمنة الطبقة المتوسطة التي أخذت تشغل المناصب الادارية المتعلقة بالنمو الاقتصادي والاستثمارات المالية، وكان المستفيد من اتساع هذه الطبقة هم السكان «القدامى» الاشكناز (روزنفلد وكرمي، ١٩٧٦)؛ المسار الثاني هو الحاجة الى عمال غير مهنيين يقومون بالأعمال «السوداء» وهؤلاء العمال كانوا من «السفاراديم». أي أن تحقيق الرفاء الاقتصادي في الدولة الحديثة كان من ناحية فعلية على حساب الطبقات الضعيفة (السفاراديم والعرب)، وبالتالي، وبحتمية واضحة، تبلور «السفاراديم» كطبقة اجتماعية متدنية.

ومما ساعد على تخليد «السفاراديم» كطبقة متدنية هو الفارق في المداخيل الذي أخذ يتسع مع السنين. هليفي وكلينوب–ملول (١٩٧٥) صاغا المعادلة كالتالي:

«هذا الارتفاع في عدم المساواة يظهر في نسبة الدخل التي تصل الى أيدي حوالي (٣٠٪) من السكان برأس السلم. وليس أن جزءًا فقط من السكان يحظى بأقل من الآخرين من ارتفاع معدل الدخل، الا أنه وعلى فترات متواصلة لم يرتفع أبدًا دخل الشرائح المتدنية: بين ١٩٥٠ و١٩٥٦ لم يرتفع المدخول الحقيقي للشرائح الخمس الدونية، وبين ١٩٥٤ و١٩٥٧/٥٨ لم ترتفع المداخيل الحقيقية للخُمسيْن الدنيويين».

من هنا، فان المبنى الطبقي الاسرائيلي، على تركيباته الاثنية، تحول الى مبنى يخلد نفسه، ويجب عدم توقع أي تغيير أساسي مع انقضاء فترة انتقالية أيًا تكون. وللتلخيص، فان مكانة «السفاراديم»

تعكس عدة تناقضات أساسية في المجتمع الاسرائيلي. وفيما أعتبر «السفاراديم»، بمجرد كونهم يهوداً، متساوين فعليًا مع باقي المواطنين اليهود، الا انهم اعتبروا فعليًا متخلفين وبدائيين في نظر معظم «الاشكناز»، بما في ذلك مؤسسات الاستيعاب (بطاي، ١٩٧٠).

الخلفية السياسية

خلال العقدين الأولين بعد اعلان اسرائيل عن قيامها، كانت هناك محاولات لنشاطات سياسية بين «السفاراديم»، لكنها كانت قليلة وعادة غير ذات تأثير. الأحزاب والتنظيمات السياسية بقيت صغيرة جدًا. وبقي النشطاء السياسيون «السفاراديم» الذين انضموا الى الأحزاب القائمة، في المستويات المنخفضة من ناحية التدرج الهرمي لهذه الأحزاب، واستغلُوا في الأساس كوسطاء حزبيين، وكانت وظيفتهم تجنيد الدعم للأحزاب لقاء تميزات ومحظيات مختلفة كان بامكانهم تحويلها الى مؤيديهم (ميدينغ، ١٩٧٢). (٢)

النشاط السياسي الأبرز بين اليهود «السفاراديم» جرى في حيفا في وادي الصليب سنة ١٩٥٩. فقد قام نشطاء من الحي، بزعامة دافيد بن هاروش، باقامة تنظيم يحمل الاسم «تكتل مهاجري شمال افريقيا»، حيث نظم نشطاء «التكتل» مظاهرة ووزعوا مناشير ضد الاحزاب القائمة ونشطائها من اليهود «السفاراديم». ودعوا كل السكان الى الانضمام الى جسم فوق حزبي يدافع كما يجب عن مصالح الطوائف الشرقية. خلال المظاهرة وقعت مواجهات عنيفة بين المتظاهرين وبين الشرطة. وانتشرت المظاهرات الى مراكز «سفارادية» أخرى، وأقيمت في عدة أماكن أخرى فروع لـ «التكتل». وحاول نشطاء التنظيم اقامة حركة اجتماعية تعمل على تنظيم التظاهرات. وجرى توزيع واسع للمناشير وأجرى نشطاء من وادي الصليب اجتماعات جماهيرية في أماكن عديدة في البلاد. ومع ذلك، خمدت هذه النشاطات بعد عدة شهور. كما أن معظم النشطاء المركزيين أعتقلوا لفترات تراوحت بين ثلاثة شهور الى حوالي السنة. وحاول بن هاروش أن يخوض انتخابات الكنيست في كانون الأول ١٩٥٩ وكان لا يزال معتقلاً، لكنه لم يتجاوز نسبة الحسم. وقد أدت ضغوطات مؤسساتية كبيرة الى إخماد ودحر التنظيم نهائيًا. ولكن النجاح الذي حققته تظاهرات وادي الصليب كان في الأثر الكبير الذي خلفته على المؤسسة وعلى الجمهور، وحتى أن رئيس الحكومة أمر بتشكيل لجنة تحقيق رسمية حول الأحداث. ومع ذلك، من الصعب القول اليوم إن تغييرًا جوهريًا حصل في وضع «السفاراديم»، مع أن الوعي لمشاكلهم ازداد كثيراً.

وحتى سنة ١٩٧٠، بقيت العلاقات بين «الأشكناز» وبين «السفاراديم» بدون تغيير يُذكر. وفي ١٩٦٩ – ١٩٧٠ اشتدت جدًا حدة الصراعات في المجتمع الاسرائيلي. وكان المسبب الرئيسي لهذه الصراعات الهجرة الجديدة آنذاك من الاتحاد السوفييتي (سابقاً)، والاستقبال الذي حظي به المهاجرون من هناك. وكانت هذه الهجرة الكبيرة الأولى التي تمتعت بالامتيازات التي قررت الدولة منحها للمهاجرين في الستينيات، لتشجيع الهجرة من الدول «المتقدمة». وبالاضافة الى الامتيازات الاقتصادية، حظي المهاجرون السوفييت باستقبال حار ومؤثر من جانب السلطات والاعلام الاسرائيليين. هذا الأمر، زاد من تبرم الكثير من المهاجرين القدامى، ورأوا فيه تفضيل الحكومة لـ «الروس» عليهم. ومما «زاد الطين بلة» اتفاق وقف النار مع مصر في صيف ١٩٧٠، الذي مكن من الالتفات الى المشاكل الداخلية بعد «زوال الخطر الخارجي».

«الفهود» يخرجون للشوارع

على هذه الأرضية المذكورة (٣)، وفي الظروف المعروضة أعلاه، نشأت حركة «الفهود السود»، في نهايات ١٩٧٠ وبدايات ١٩٧١. وبرز من مؤسسيها، وفيما بعد من قياديها: سعاديا مرتسيانو، تشارلي بيطون، ريئوفين أفرجيل، أيدي مالكا وكوخافي شيمش. وقد بدأ «الفهود السود» في النشاط كمجموعة من حي فقير (المصرارة) في القدس. وحي «المصرارة» كان حتى سنة ١٩٤٨ حيًا فخمًا عاش فيه حوالي ٨٠٠ عربي. في سنة ١٩٥٢، سكن في نفس تلك البيوت حوالي ٦٥٠٠ يهودي، غالبيتهم مهاجرون جدد من المغرب، في ازدحام سكني مذهل، أربعة أولاد على السرير، أربعة أجيال في غرفتين.

وبالاضافة الى تنظيم المظاهرات والتجمعات، كان «الفهود» يبادرون الى تطبيق أفكار كان يطلقها «مفكر» المجموعة سعاديا مرتسيانو. ومثل هذه الأفكار التي طبقوها: حملة سرقة الحليب والخبز من الأحياء الغنية في القدس (مثل رحافيا) وتوزيعها على الفقراء.

وخلال أكثر من سنة، قاد «الفهود» الاحتجاج ضد التمييز الطائفي وضد الفوارق الاجتماعية–الاقتصادية. وبالرغم من أن عدد «الفهود» لم يكن كبيرًا في أية مرحلة، إلا أن الحركة استندت الى قاعدة واسعة، وكان لإحتجاجهم تأثير كبير، وخلق ردودًا كثيرة جدًا، ومتفاوتة أكثر.

في الثالث من آذار ١٩٧١، دعت مجموعة الشباب من المصرارة، الى مظاهرة أمام مبنى البلدية في القدس الغربية. كل أعضاء المجموعة كانوا من أصل مغربي وتراوحت أعمارهم بين ١٨ الى ٢٠ عاماً. غالبيتهم تسربوا من المدارس الابتدائية وقضوا فترات مختلفة في مؤسسات للشبيبة الجانحة، ولذلك لم يخدموا في الجيش الاسرائيلي. كما أن أحدًا منهم لم يعمل في مكان عمل ثابت. وقسم منهم لم يعمل

مظاهرة حاشدة نظمها اليهود السود

قط. والقسم القليل الذي عمل، عمل في أعمال غير مهنية ذات مستوى دخل منخفض. وما ادى بهذه المجموعة من الشباب «السفاراديم» المغاربة الى الخروج الى هذه التظاهرة، والى الكثير غيرها، عاملان اثنان، الأول محلي والثاني عام. العامل الأول كان تأثير عاملين اجتماعيين لرعاية الشبيبة عملوا في قسم العمل الجماهيري في بلدية القدس. فقد كان هؤلاء العاملون، بادارة أ. عميئيل، الذي كان معروفًا بنزعته الراديكالية التي أدت الى نشوء خلافات متقاربة بينه وبين المؤسسة البلدية، يعملون على تفعيل هؤلاء الشباب وجعلهم يعبرون عن مطالبهم. وقد آمن العمال الاهليون بفكرة أن على متلقي الخدمات أن يكونوا فعالين في التعبير عن مطالبهم، وبادروا الى لقاء الشباب من المصرارة مع وسائل الاعلام. هذا الاهتمام اتضح فيما بعد، أنه جاء ليخدم قسم العمل الجماهيري في البلدية الذي كان يحارب على عدم تقليص ميزانياته ورأى في دفع شباب المصرارة الى الواجهة، كعامل مهم في الحفاظ على القسم. العامل الثاني المهم في دفع «الفهود» الى الاحتجاج الفعال، هو البعض من الأكاديميين والطلاب الجامعيين اليساريين الراديكاليين اليهود، وغالبيتهم كانوا معادين للصهيونية. الصحافي الأول الذي التقى مع المجموعة كتب عن اللقاء:

«أبناء شبيبة مهمّلون قالوا: نحن نريد التنظم ضد الحكومة الاشكنازية والمؤسسة. نحن سنكون الفهود السود في دولة اسرائيل. عندما أعدموا يهوداً سودًا في بغداد سكت الاشكناز، والآن فيما ينوون اعدام يهود بيض في روسيا يقومون باضرابات عن الطعام والكل يتظاهر.»

(«عال همشمار»، ١٩٧١/١/١٣).

هذا التقرير وغيره من التقارير اللاحقة، ولدت أسئلة اخرى وانكارات من الناطق بلسان البلدية والشرطة. «الفهود السود» فهموا أنه وربما للمرة الأولى في حياتهم، لتصريحاتهم تأثير يُذكر. الاعلام بالنسبة لهم صار أداةً مصيرية في عمل الحركة، وهناك من أخذ عليهم اتكالهم الكبير الى الاعلام وإهمال القضايا الأخرى. وقد قوى هذا الشعور وعي وتجربة الأكاديميين اليساريين الراديكاليين، مما أدى الى فكرة اجراء مظاهرة. وبالتالي، قدم «الفهود» طلبًا لاجراء مظاهرة بحسب كل الخطوات المتبعة. مركز الشرطة حوّل الطلب الى رئيسة الحكومة آنذاك غولدا مئير. مئير استشارت رئيس بلدية القدس آنذاك، تيدي كوليك، والمفتش العام للشرطة وتقرر رفض الطلب والخروج باعتقالات وقائية. ثم اعتقل ٦-٧ من أعضاء «الفهود» مع داعمين لهم من حركة «الشرارة» اليسارية (سنأتي على ذكر دورها لاحقًا). وبالرغم من ذلك، وُزع المنشور الأول ، ومما جاء فيه:

«كفانا انه لا يوجد عمل

كفانا النوم عشرة في غرفة واحدة

كفانا النظر الى العمارات التي تُبنى من أجل المهاجرين

كفانا السجن والضرب كل اثنين وخميس

كفتنا وعودات الحكومة التي لا تُنفذ

كفانا الظلم

كفانا التمييز»

وقد شارك في المظاهرة الأولى غير المرخصة ٢٠٠ الى ٣٠٠ متظاهر، بالرغم من الاعتقالات الوقائية. وكانت غالبية المتظاهرين من الطلاب الجامعيين وغرباء وعدد من رجال الفكر. القليل فقط قدموا من أحياء الفقر.

وبالاضافة الى تنظيم المظاهرات والتجمعات، كان «الفهود» يبادرون الى تطبيق أفكار كان يطلقها «مفكر» المجموعة سعاديا مرتسيانو. ومثل هذه الأفكار التي طبقوها: حملة سرقة الحليب والخبز من الأحياء الغنية في القدس (مثل رحافيا) وتوزيعها على الفقراء، وادخال كميات كبيرة من الجرذان الى بيت وزير الداخلية، يتسحاق رفائيل. واستمر مرتسيانو في ابتداع الأفكار، حتى بعد انهيار الحركة. فهو من أعطى

«أنت مسحوق. ليس لأنك وُلدتَ مسحوقًا- حاشا وكلا. بل لأنهم يسحقونك. لنفترض أنك عامل أسود من أصل عراقي، يمني أو مغربي، وربُ لعائلة كثيرة الأولاد، فمن الممكن التنبؤ بماضيك. لم تكد تصل الى أرض اسرائيل حتى قذفوا بك الى «المعبراه». حصلت على أجر استغلالي والأخطر من ذلك: هم من أكلوا ثمار عملك: مديرو العمل، أصحاب المصنع، الرؤساء. حتى اليوم ما زالوا يفاخرون ببناء الدولة، وبشق الشوارع.... هم اليوم أصحاب الوظائف الكبيرة في الدولة التي بنيتها أنت

تشارلي بيطون (عضو كنيست عن «الجبهة» عندها) بعد كثير من السنوات فكرة أن يلقي خطابًا أمام الكنيست وظهره للجلاس ووجهه للحائط...

جريدة «همعرخاه»، الناطقة بلسان الجمهور السفرادي والطوائف الشرقية، تصف الردود الأولى في القدس على ظهور الحركة (١٩٨٢، العدد ٢٦٤): «ظهور الفهود السود أثار في القدس ذهولاً ومشاعر متضاربة من جهة الجمهور، الذي لم يكن معتادًا على هذا النوع من الاحتجاج. من جهة، أثار احتجاجهم الصد والمعارضة بسبب اسمهم والاسقاطات التي يثيرها نفس التنظيم في الولايات المتحدة. كما أن الأخبار عن علاقة الفهود بـ «الشرارة» لم تزد من احترامهم؛ من جهة أخرى، استيقظ ضمير الناس تجاه صرخة الظلم الصادقة التي أطلقتها اسرائيل الثانية. كشف المشكلة في عريها الكامل للجمهور في البلاد جانبًا آخر من الحياة التي لم يكونوا واعين لها. الفقر، الضائقة، الظلم وأكثر من ذلك- مشاعر الاحباط واليأس التي مرت عبر حاجز مندلباوم من المصرارة الى عناوين الصحف ووسائل الاعلام ووصلت الى صالونات اسرائيل المتخمة.»

«الفهود» يؤدلجون احتجاجهم

الموضوع المركزي الذي طرحه «الفهود» هو المطلب بأن يحظى «السفارادیم» على قسم متساو وكامل في الكيان القومي من الناحية الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والثقافية. وقد رفضوا أية تسوية ورفعوا شعار التوجه الحاد المدموج مع التهديد الخفي: «اذا لم نحصل على حصتنا من الكعكة، فانه لن تكون هناك كعكة» (مرتسيانو). في أحد المناشير الأولى فصّل «الفهود» مطالبهم بوضوح، من المفضل أيرادها هنا:

أ).القضاء على مراتع الفقر.

ب) التعليم المجاني من الروضات وحتى الجامعات للعائلات المعدمة.

ج) السكن للعائلات المعدمة وللأزواج الشابة، وبنفس الظروف التي حظي بها المهاجرون الجدد.

د) القضاء على مؤسسات الشبيبة الجانحة التي تشكل دفيئة للمجرمين الشباب مستقبلاً، وبدلاً منها اقامة داخليات، مدارس زراعية ومدارس مهنية.

هـ) رفع أجور المعيلين لأولاد كُثر، وتخفيض الضرائب عنهم؛ وتمثيل كامل لأبناء طوائف الشرقيين في كل المؤسسات الجماهيرية والحكومية.

ولكنهم في ذات الآن شددوا على ولائهم لدولة اسرائيل. جوهر الاحتجاج نبع في النهاية من الاعتراف بالحقوق التي يستحقونها كمواطنين: «نحن نتظاهر من أجل حقنا في أن نكون ككل المواطنين في هذه الدولة» (منشور، ١٩٧١/٣/٣). كما أن الاحتجاج جاء في الأساس من المعاملة التي حظي بها المهاجرون من «الاشكناز»، كما ذُكر سابقًا. فيما يلي اقتباس من منشور للحركة وُزع في آب ١٩٧١:

«أنت مسحوق. ليس لأنك وُلدتَ مسحوقًا- حاشا وكلا. بل لأنهم يسحقونك. لنفترض أنك عامل أسود من أصل عراقي، يمني أو مغربي، وربُ لعائلة كثيرة الأولاد، فمن الممكن التنبؤ بماضيك. لم تكد تصل الى أرض اسرائيل حتى قذفوا بك الى «المعبراه». حصلت على أجر استغلالي والأخطر من ذلك: هم من أكلوا ثمار عملك: مديرو العمل، أصحاب المصنع، الرؤساء. حتى اليوم ما زالوا يفاخرون ببناء الدولة، وبشق الشوارع.... هم اليوم أصحاب الوظائف الكبيرة في الدولة التي بنيتها أنت. وأنت -العامل الحقيقي، البناء الحقيقي- بقيت مسحوقاً. في نهاية الأمر، فأنت لم تأتِ الى البلاد من موسكو أو من لينينغراد. اذن، فَلِمَ تحصل على شقة طبيعية؟»... حاييم هنغبي، من مؤسسي «الشرارة» ورافق «الفهود» في تاسيسهم ونشاطاتهم: «الفهود حملوا في داخلهم كراهية كبيرة للمهاجرين الجدد، زادت أضعافًا عن عدائيتهم للعرب. عندها في العناوين كان غروشا فايغين (اليهودي الروسي المعتقل- ع.ح.) ومظاهرات «ابعث بشعبي». الشعار «فيللا-

فولفو»، وقف مقابل الفقر والازدحام اللذين رأيناهما لأول مرة في المصرارة، وكنا مذهولين.» (يديعوت أحرونوت، ١٩٨٦/١١/٢)

بعد مضي حوالي نصف السنة، بدأ عدد من الناطقين الرئيسيين باستيعاب الاحتجاج بمفاهيم أكثر شمولية. وقد واصلوا التعامل مع «السفاراديم» بالأساس، لكن توجههم الآن صار عامًا أكثر. مثلاً: وُجه عدد من المناشير الى العامل أو ربة البيت أو الشباب، وتبلور شعور بأن عليهم بناء فهم عام للوضع في المجتمع الاسرائيلي. وبدأ عضوان أو ثلاثة من القياديين برؤية وضع الفلسطينيين داخل اسرائيل وسياسة اسرائيل الخارجية كجزء من المسألة الاجتماعية التي تشغلهم. وقد قالوا إن احتجاجهم بدأ مع مسألة قمع «السفاراديم» وأن عليه الآن التوسع والتطرق الى كل أشكال القمع الموجودة في المجتمع الاسرائيلي. وقد عارض آخرون هذا التوجه وادعوا أن عليهم الالتصاق بالأسئلة الأولية حول قمع «السفاراديم»، وعدم الاهتمام بأسئلة أخرى. هذا الخلاف الداخلي لم يُحل في الواقع. وفي ربيع ١٩٧٢ وصل «الفهود» الى وضع من الاضمحلال والجمود. الحاجة الى صياغة أكثر وضوحًا وأكثر شموليةً للمواقف برزت جيدًا، لكن قوة الحركة ووضعها لم يمكنا من مواجهة هذه الأمور وهذه المهمة...

من أنتم، أيها «الفهود»؟

رأى عدد من الباحثين أن «الفهود السود» كانوا معتدلين في مطالبهم وسلموا بالفرضيات الأساسية التي قام عليها المجتمع الاسرائيلي (عتسيوني–هليفي، ١٩٧٥؛ كوهين، ١٩٧٢). ويطرح هذا التحليل مسألة الازدواجية في تعامل «الفهود» مع المجتمع الاسرائيلي ودولة اسرائيل والدور الذي أداه احتجاج «الفهود» في القاء الضوء على التناقضات القائمة في هذا المجتمع.

والتوجه الذي ساد عند «الفهود» للدولة هو الولاء والقبول. فهم لم يعارضوا فكرة الدولة اليهودية ولا قدرتها وامكانياتها لمنح حقوق ومكانة متساوية لكل مواطنيها اليهود. لكن هذا الولاء كان لفكرة دولة اليهود كفكرة، وليس للترجمة الواقعية لها متمثلة في دولة اسرائيل. مسألة «الأمن» تشكل ترجمة لهذه الازدواجية. فقد ادعى «الفهود» أنهم لا يشكلون خطرًا على أمن الدولة، على العكس– القضاء على الفقر والجريمة هو شرط حيوي للأمن الحقيقي. وفي نفس الوقت قالوا إن السلطة تستخدم موضوع «الأمن» لدفع مصالحها. كما ادعوا أن مستلزمات الأمن وتبعاته لا تتوزع بشكل متساوٍ بين كل طبقات الجمهور، وانما يتحملها بالأساس «السفاراديم». وادعوا نهايةً أنهم يحتفظون لأنفسهم بحق التقرير، بشأن الحالات العينية التي تُلزم بتقديم الضحايا التي يتطلبها الأمن.

هذه الازدواجية برزت أيضًا في توجه «الفهود» لرموز ومقومات الدولة اليهودية: فمن جهة هم يعترفون بالدولة ويطالبون بالاندماج فيها على أساس المساواة الكاملة، ومن جهة أخرى يعربون عن معارضتهم لميزات مركزية في المجتمع الاسرائيلي. فيما يلي اقتباس لكوخافي شيمش:

«نحن تابعون ولكننا لسنا شركاء (....) أنا أميز بين الحكومة وبين الدولة، لكنكم لا تستطيعون اخافتي بما سيحصل اذا دمرنا الدولة، لأننا لا نرى أنفسنا شركاء.»

استمرارًا للاقتباس يجدر الذكر أن «الفهود» لم يروا أنفسهم يومًا متبنين للفكر الصهيوني ولم يستخدموا يومًا كلمات مثل «الصهيونية» أو «صهيوني». هذا لم يجعلهم عدائيين للصهيونية، لأنهم ببساطة قبلوا مبدأ الدولة اليهودية كبيت قومي للشعب اليهودي.

وقد دمج «الفهود» في طرحهم توجهين متباينين: فهم تحدثوا بمصطلحات طبقية اجتماعية، ومارسوها بممارسات ودعوات طائفية. من جهة، وضعوا أيديهم على عصب المشكلة، ومن جهة أخرى قيدوا طروحاتهم في منظور ضيق وغير شامل. (٤) ولكن يجب عدم النسيان أن «الفهود» استطاعوا عن طريق هذا الطرح أن يشككوا ويخرجوا ضد مسلمات الخطابة والدعاية الاسرائيلية الداخليتين، عن أن الفوارق الاجتماعية–الاقتصادية ستزول مع الوقت، بادعاء أنها وليدة عملية بناء الدولة وليست وليدة للتمييز الطبقي والطائفي. في هذا المنحى،

«الى الجحيم يا حكومة التخنيض» (تخنيض العملة) مظاهرة ضد حكومة غولدا مئير ١٩٧١

ترى برنشطاين أن «الفهود» كانوا «معتدلين في مطالبهم العينية، لكن في نفس الوقت، تحدوا الأسس التي تقوم عليها الدولة».

المشكلة في «التنظيم»!

كان هدف «الفهود» اقامة تنظيم قطري يعتمد على سكان أحياء الفقر. وتحدث «الفهود» عن اقامة فروع في أنحاء البلاد، عن تجنيد داعمين لهم وعن تفعيل المسحوقين. ولكن على أرض الواقع، كان مبنى التنظيم يختلف كليةً. ومن نواح عديدة، حافظ «الفهود» على تميزهم كـ «مجموعة شارع»، كما كانوا قبل اعلانهم كـ «فهود سود». وبقي سعاديا مرتسيانو قائد المجموعة، كما كان في الحي. وبقي «الفهود» مجموعة نواة صغيرة. وبعد المظاهرة الأولى انضم عدة أعضاء جدد الى المجموعة. وكان هؤلاء بالأساس شبانًا من حي المصرارة، بالاضافة الى عدد من ناشطي الأحياء المهمين من أحياء أخرى في القدس. وقد أدى انضمام أعضاء جدد الى تنافس على القيادة والتأثير داخل الحركة. كما تشكلت نزاعات غير رسمية ومشادات داخلية، استهلكت كلها وقتًا غير قليل من وقت الحركة. كما أن المبنى التنظيمي الصوري والنشاطات كانت قليلة. المجموعة اجتمعت كل يوم في أماكن الالتقاء الثابتة في حي المصرارة وفي مركز القدس الغربية، ولكن مع تفضيل كل مجموعة صغيرة لأماكن خاصة بها.

وقد جرت في الحركة انتخابات متكررة لمؤسسات مختلفة لادارة شؤون الحركة، لكن القرارات أتخذت في النهاية على يد مجموعة النواة. ومن حول مجموعة النواة هذه نشأت مجموعة من الناشطين الداعمين. هذه المجموعة بلغ عدد أعضائها ٢٠-٣٠ شابًا من الحي، مع بعض الداعمين المخلصين ومن ضمنهم محاضر في الجامعة، صحافية ومجموعة طلاب جامعيين. النشر الكبير بعد المظاهرة الأولى أدى الى جذب أعداد كبيرة أخرى من المؤيدين. ولكن في معظم الحالات، كانت العلاقة مع المهتمين الجدد قصيرة والتعاون الفعلي يكاد لا يُذكر. «الفهود» كانوا معنيين بالاهتمام وبالمساعدة لكنهم كانوا حساسين أكثر من كل شيء لمحاولات السيطرة على المجموعة أو من التدخل الواضح في اتخاذ قراراتها.

وفي الواقع، لم يكن «الفهود» قادرين على تجنيد وتنظيم مؤيديهم الحقيقيين والمحتملين. وشكلت القدرة التنظيمية المحدودة عند المجموعة وقياديها عائقًا كبيرًا ومهماً. وللتغطية على عدم القدرة على التجنيد والحشد، كان الحل الذي التجأوا اليه في أوقات متقاربة هو ترتيب المظاهرات. وتركزت معظم المظاهرات التي قام بها «الفهود» بين آذار – آب ١٩٧١. قسم من المظاهرات كان كبيرًا جدًا بمقاييس اسرائيلية وقتها وشارك بها ٥٠٠٠ – ٧٠٠٠ متظاهر. مظاهرات أخرى كانت أقل عددًا وشارك فيها ٥٠٠ – ٧٠٠ متظاهر. بالاضافة الى تجنب العائق التنظيمي، شكلت المظاهرات بالنسبة لـ «الفهود» مخرجًا من الصراعات والنزاعات الداخلية.

بعد المظاهرة الأولى في آذار ١٩٧١، جرت مظاهرتان لكنهما كانتا صغيرتين نسبيًا. وفي نيسان جرت مظاهرة، وتقرر بعد ذلك اجراء مظاهرة كبيرة تشل مركز القدس الغربية. الى مظاهرة الثامن عشر من أيار وصل آلاف المتظاهرين– معظمهم من «السفاراديم». وعند توقف المظاهرة في الشارع اعتدت الشرطة فورًا على المتظاهرين وأعلن عن المظاهرة غير قانونية. واستمرت المواجهات عدة ساعات واعتقل حوالي ١٠٠ متظاهر، أفرج عن غالبيتهم بعد عدة أيام. ولما عادت المظاهرات فيما بعد لتكون صغيرة، شعر «الفهود» بأن الناس نسيتهم أو كادت، فتقررت مظاهرة ضخمة أخرى في نهاية آب. وفي المظاهرة أغلقوا الشارع الرئيسي وحرقوا صورة لرئيسة الحكومة، ما أدى الى تدخل الشرطة واعتقال قياديي الحركة، وتقديم عدد منهم للمحاكمة والحكم عليهم بغرامات مع عقوبات بالسجن مع وقف التنفيذ. هناك من يرى أن العقوبات مع وقف التنفيذ أخافت القياديين الذين أصبحوا أقل استعدادًا للمبادرة لمظاهرات كبيرة وعنيفة. كما أن الكثير من الداعمين والناشطين خفتوا وانسحبوا تدريجيًا. ونتيجة لضعف المجموعة التنظيمي وعدم قدرتهما على تجنيد قطاع واسع من الناس، تراجع أعضاء اللجنة التنفيذية في الهستدروت عن فكرة الانضمام الى احتجاجات «الفهود» كما أن قياديي الوكالة اليهودية وممثلي «اتحاد مهاجري المغرب» خفت حماسهم للمجموعة.

بداية النهاية... الفهود الصهاينة!

خلال العام ١٩٧٢ كانت مجموعة النواة، أو ما تبقى منها، خاملة النشاط تقريبًا. كما أن معظم الداعمين من الضواحي تفرقوا وفقط مئات قليلة شاركوا في المظاهرات. ومعظم المشاركين في المظاهرات كانوا من الطلاب الجامعيين وليس من «السفاراديم». وكحل للضائقة، فكر «الفهود» في التنظم كحزب سياسي والاشتراك في انتخابات الكنيست. كما أنهم استجابوا حينها لتوجه النائب شالوم كوهين وأقاموا سويةً حزبًا موحدًا سمي بـ «الفهود السود– ديمقراطيون اسرائيليون». وخاض الحزب الجديد انتخابات الهستدروت وحصل على (١,٦٪) من الأصوات بواقع ثلاثة ممثلين في اللجنة التنفيذية.

وبعد ذلك بزمن قصير اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتركز الانتباه في قضية الأمن والسياسة الخارجية. وجرت الانتخابات العامة في كانون الأول من تلك السنة ولم ينجح «الفهود» فيها بعبور نسبة الحسم كما لم ينجحوا في الانتخابات البلدية في أية مدينة أو قرية.

هذا الانتقال الى حزب سياسي عاد بالضرر في نهاية الأمر. فكحزب سياسي كان على «الفهود» أن يتعاملوا مع الكثير من الأسئلة العامة والتي لا تتعلق بطرحهم الأصلي. هذا الأمر أدى سريعًا الى نشوب خلافات داخلية، نتيجة لتباين المواقف بين قيادة الحزب- المجموعة. فالمجموعة التي نادت بالولاء المطلق وغير المشروط للدولة انسحبت من «الفهود» وأقامت حزبًا منافسًا سمي بـ«الفهود الصهاينة» (فهود أزرق-أبيض). من الجهة الأخرى انشقت أيضًا مجموعة «الفهود» التي بلورت خطًا لا صهيونيا واضحًا وحاولت اقامة مجموعة باسم «القوة الثورية السوداء». وبالرغم من هذه الانشقاقات، لم تختفِ الازدواجية في الحركة ولم تُحل نهائيًا. فمن جهة تمأسست الحركة كحزب سياسي يدور في فلك المؤسسة، ومن جهة أخرى حافظت الحركة على طابعها الثوري بعض الشيء في تعاملها مع المؤسسة: استمروا في تنظيم مظاهرات ضد المؤسسة واستمرت الشرطة في اعتقال قادة «الفهود»، واستمرت التحالفات مع مجموعات هامشية وغير مُمأسسة مثل «ياعد» و«موكيد» ونشطاء لجان عمال صداميين.

التطورات الأخيرة في حركة «الفهود السود» جرت في أيار ١٩٧٧، عشية الانتخابات للكنيست. فقد أيقن الحزب الصغير أن عليه أن يبحث عن حليف. ولأن النشطاء القلائل لم يستطيعوا الاتفاق على حليف واحد، انشق الحزب الى ثلاثة اتجاهات مختلفة: سعاديا مرتسيانو، مؤسس الحركة، انضم الى جبهة مجموعات اليسار الصهيوني والتي أسست سوية حزب «شيلي»؛ كوخافي شيمش وتشارلي بيطون انضما الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي («راكاح») بينما انضم الشق السابق من الفهود الصهاينة الى حزب «داش»؛ شالوم كوهين لم ينضم الى أية واحدة من المجموعات واختار التحالف مع يهوشواع بيرتس. «الفهود السود»، كحركة ومجموعة مستقلة، صاروا منذ تلك اللحظة صفحةً مطويةً من صفحات التاريخ...

ردود الفعل: من «الشرارة» الى غولدا

أثار احتجاج «الفهود» على الفور، ردود فعل حادة ومتباينة، في حدتها وفي نزعتها. هذا الأمر نبع من المواضيع التي طرحها «الفهود» ومن الوهم الذي نشأ عند المعظم أن بامكان «الفهود» تجنيد الجماهير

الشرطة تقمع مظاهرة «الفهود» السود في القدس

وقيادة حملة جماهيرية واسعة. بالنسبة للمواضيع التي طُرحت، فانها مسّت أحد الأعصاب الرئيسية في المجتمع الاسرائيلي، كما أنها كانت متعلقة بعدد كبير من المواطنين اليهود. ومما ساعد (ويا للمفارقة) أن يتبنى عدد كبير من الناس مبادئ «الفهود» وطروحاتهم، هي الازدواجية التي ذكرت في معرض المقالة هذه. فكان مثلاً أن «الليكود» والحزب الشيوعي الاسرائيلي، بادرا في نفس الوقت الى اقامة اتصال معهم. الأول، لأن «الفهود» كانوا يطرحون مشاكل «السفارديم» الذين يشكلون نسبة كبيرة من مصوتيه؛ والثاني، لأن «الفهود» طرحوا موضوع الطبقية والعدل الاجتماعي- أهم طرح من طروحات الشيوعيين.

كما أن «الفهود» تلقوا منذ البداية الدعم من مجموعات يسارية، بعضها صهيوني والآخر غير صهيوني. مثل مجموعة «الشرارة»، التي استصعبت كغيرها من الحركات اليسارية «الاشكنازية» التقرب الى الجمهور «السفارادي» الشرقي. كما أن «الفهود» إستُوعبوا كشركاء محتملين، من قبل شخصيات من داخل المؤسسة، الذين ظنوا أنه سيكون من السهل «شراؤهم»، ومن قبل مجموعات غير مؤسساتية، مثل منظمات الأزواج الشابة. في داخل المؤسسة، كانت هناك ردود متفاوتة جدًا. فقد كانت هناك أصوات في المؤسسة ترغب

بالتغيير الاجتماعي وتوزيع الموارد بشكل متساو، وبالتالي رأت في «الفهود» حركة شرعية ومطلوبة. وكان هناك من ظن أن على «متلقي الخدمات» أن يكونوا فعالين في تغيير أوضاعهم، ورأوا في هذا الأمر خطوة علاجية، في سبيل ترك «ثقافة الفقر». آخرون، اعترفوا بالضغط الذي وقع على المؤسسة وحاولوا استغلاله للحصول على ميزانيات كبيرة للخدمات الاجتماعية. مع ذلك، رأت الغالبية الساحقة في المؤسسة الاسرائيلية في هذا الاحتجاج تهديدًا جديًا وحاولوا وقفه بطرق مختلفة.

في سياق متابعة الردود على هذه الحركة، لمحاولة رسم معالم الحركة بمختلف أبعادها، أورد فيما يلي ثلاثة استعراضات لردود من ثلاثة تيارات مختلفة.

شركاء حتى النخاع

كما ذُكر، فان «الشرارة»، كحركة يسارية راديكالية غير صهيونية، رأت في «الفهود» منذ البداية، شريكًا في النضال الطبقي. «الشرارة» كانت عبارة عن ائتلاف لمجموعتين انشقتا عن «راكاح»، بسبب معارضة الاتحاد السوفييتي في سياساته الخارجية. شمشون فيغودير، أحد مؤسسي «الشرارة» ومن أبرز أعلامها، كتب عن أيام «الفهود» الأولى عن انضمام أعضاء ممن تركوا «الشرارة»، الى الحركة. فيما يلي قسم من مقال (٤) نشره فيغودير عن ذلك («نظرية ونقد»، ١٩٩٨، اصدار خاص، ص: ١٩٩-٢٠٤):

«كان هذا في القدس، في مطلع ١٩٧١. كنا ثلاثة شبان أشكناز في سنوات العشرين الأولى لأعمارنا، كنا قد تركنا «الشرارة»، رافي بروك، يغآل نُوّاح وأنا (....) سويةً مع بعض الشبان الاشكناز انضممنا الى مجموعة شبان شرقيين بدأت بالتنظّم عندها في حي المصرارة. عاملة اجتماعية قالت لهم إنهم يتكلمون مثل «الفهود السود» في أميركا وهذا فظيع. وهم تبنوا الاسم فورًا. تحدثنا معهم عن اليسار، عن الكفاحات ضد الاستعمار، عن قمع الثقافة الشرقية، وعن مصلحة الثقافة المهيمنة بدب الخلافات بين الشرقيين والعرب. تعلمنا منهم كيف تكون الضائقة الاجتماعية وما هو الظلم الطائفي وحصلنا بواسطتهم على منظور اضافي لفهم الوضع الاسرائيلي. قضينا أوقاتنا معًا، استمعنا للموسيقى معًا ودخنّا الحشيش، الذي ربط في تلك الفترة في القدس بين العرب واليهود وبين الأشكناز والشرقيين.

«منذ البداية حاولنا أن نجنّد أعضاء في «الشرارة» للعمل في الأحياء. لا يمكن تحقيق ثورة مع بلوريتاريا غير مكتملة، قال لنا الكثيرون، وكما يجب أن يُرد بحسب قواعد التحليل الماركسي. لكن كان هناك آخرون كانوا على استعداد للمحاولة وانضموا الى اللقاءات. سويةً مع أخي الصغير مئير فيغودير، يغآل نُوّاح وداني لفيت تجولت مع الشباب من المصرارة في بلدات التطوير وفي الأحياء في كل البلاد، نبث البشارة، نكتب المناشير سويةً، في الوقت الذي أمدنا فيه الاشكنازيون بالكثير من العلاقات والقليل من الرأسمال الثقافي. القدرة السياسية التي اكتسبناها في «الشرارة» ساعدتنا على تنظيم المظاهرة الأولى. عرفنا، على سبيل المثال، أنه من أجل التظاهر علينا طلب ترخيص وعرفنا أيضاً كيف نقوم بذلك. لكن، عندما وقع الفهود على الطلب رفضت الشرطة الطلب، والتي بدأت على الفور باعتقالات وقائية. في البداية أعتقل الأعضاء الشرقيون. بعض من الأشكناز استمروا في توزيع المناشير التي دعت للمظاهرة، وخلال وقت قصير أعتقلوا هم أيضاً. ثم قامت الشرطة بابعاد المعتقلين عن القدس ووزعتهم في سجون مختلفة في أنحاء البلاد. المظاهرة جرت، بدون ترخيص. أعضاء في «الشرارة» ورجال يسار آخرون، كان أصدقاؤهم معتقلين، استغلوا الوضع بسرعة، شغّلوا شبكات قائمة من العلاقات واستنفروا اليسار كله.»

كل الفهود الذين شاركوا في المحادثة قالوا إن مئير لم تهتم بالمرة بالتنظيم وأهدافه ومطالبه، وانما اهتمت بمواضيع تتعلق بالأفراد وأسئلة لا تهدف الى شيء. أشبه ما يكون بالجلوس الى كائن غريب للتأكد من أنه لا يعض... حتى أن غولدا كانت ترمز في أحيان كثيرة الى حلول عينية لمشاكل الجالسين معها، في محاولة لشرائهم.

وكان هناك الكثيرون ممن رأوا العلاقة بين «الفهود» وبين «الشرارة» كضارة أكثر منها نافعة. وهذا مرده الى الصيت السيء الذي حظيت به «الشرارة» في المجتمع الاسرائيلي، كمجموعة يسارية متطرفة ومعادية للصهيونية. جريدة «بمعرخاه» (١٩٨٢) كتبت: «مسٌ آخرُ بصورة الحركة (الفهود السود) جاء نتيجة العلاقة مع «الشرارة». وحتى قبل قيام الحركة قام أعضاء من «الشرارة» بالهاب مشاعر التمييز والظلم الخفية عند سعاديا مرتسيانو وأصدقائه في نادي «همرتيف»، وحولوه من شاب مظلوم الى قائد غير متوج».

بيطون والجبهة...

لعل انضمام تشارلي بيطون وكوخافي شيمش الى الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة مع الحزب الشيوعي الاسرائيلي («راكاح»)، وتبوّء بيطون لكرسي عضو كنيست ممثلاً للجبهة، كان «الانجاز» الأكبر من ناحية العديد من «الفهود». فها هم الشرقيون

يتحدون مع العرب، شركائهم في المعاناة من القمع، وها هو الفهد بيطون يصير عضوًا في الكنيست الاسرائيلي رغم أنف الجميع. كان يمكن لهذه الشراكة أن تغير الخارطة السياسية في اسرائيل، فيما لو نجحت. فنجاح هذه التجربة يعني اقامة تحالف حقيقي بين المقموعين في الدولة، على قاعدة غير صهيونية، والبدء في التأسيس لطرح شعبي بديل لطرح المؤسسة «الأشكنازية».

ولكن فشل هذا التحالف –وأسباب هذا الفشل هي باب واسع يجدر طرقه مستقبلا– دق المسمار الأخير في نعش ما تبقى من «الفهود السود». وهذا الفشل يأتي ربما ليدلل على استحالة الازدواجية التي حاول الفهود أن يعيشوها، بدون وعي كامل للازدواجية من جهة، وبدون الجرأة والرغبة الكافيتين لحسمها. من هنا، ومن هذا المنظور، تبدو مثل هذه الشراكة، موتًا معلنًا، حاول الطرفان أن يغضا النظر عنه.

في سياقنا، سأكتفي بأيراد قسم صغير من مقابلة أجريت مع عوزي بورشطاين، سكرتير «الجبهة» آنذاك، بعد التحالف مع بيطون، ووردت هذه المقابلة في مجلة «عرخيم» التي كان يصدرها الحزب الشيوعي الاسرائيلي (١٩٨١، العدد ٦٣):

اجتماع لقيادة «الفهود السود»

«سؤال: كيف اندمج الفهود السود في الجبهة؟

جواب: انضمام تنظيم الفهود السود الى الجبهة يشكل فصلاً خاصاً. لم يكن من السهل على التنظيم الانضمام الى الجبهة. «حيروت» والليكود سيطرا آنذاك على أحياء الفقر وداخل الشرقيين. كان واضحًا، أن سكان أحياء الفقر وبلدات الفقر سيصوتون بغالبيتهم الساحقة تصويتاً احتجاجيّاً من أجل الليكود. ومع ذلك، أصحاب الوعي في أحياء الفقر قرروا أن مكانهم في الجبهة. الأغلبية في اللجنة المركزية للفهود السود قررت الانضمام الى الجبهة. صحيح، هذا الانضمام لم ينعكس في الانتخابات، حصلنا على القليل من الأصوات في أحياء الفقر. لكن هذه الحقيقة لم تمنعنا، نحن الشيوعيين، من الذهاب في طريق مختلفة جدًا عن طريق باقي الأحزاب. بادرنا الى وضع، يكون فيه ممثل تنظيم الفهود السود عضوًا في الكنيست، وممثل ثان عن عضو في اللجنة التنفيذية للهستدروت. حضور النائب تشارلي بيطون ونضالاته في الكنيست أثبتت أننا كنا على حق. وعلى عكس شظايا قليلة من الفهود، التي انضمت الى أطر أخرى وشهدوا هناك انقسامات كثيرة، فان القسم من الفهود الذي انضم الى الجبهة يتمتع بعلاقات طيبة في داخلها، بجو عمل ملؤه التفاهم، من خلال تشجيع نشاط الفهود السود في الأحياء، ومن خلال ترقب زيادة هذا التنظيم لنشاطاته وتقوية تأثيره، لأن هذا ضروري لسكان أحياء الفقر؛ هذا ما تنتظره الجبهة بأسرها.»

«بمعرخاه» (١٩٧٧، العدد ١٩٦): «تشارلي بيطون وكوخافي شيمش تمادوا وعرفوا أنفسهم مع حركة «راكاح» المتطرفة، التي تعادي الصهيونية وتبني نفسها على تأجيج الغرائز خاصة عند ملتهبي المزاج في الشارع العربي وعناصر أخرى معادية للدولة. الشرعية التي يعطيها «راكاح» لتشارلي بيطون واضحة، ففي النهاية ليس هناك الكثيرون من اليهود ممن هم مستعدون للتماثل معهم، لكن لماذا وجد بيطون من الصواب أن يعطي شرعية لـ «راكاح»؟»

حاييم هنغبي (يديعوت أحرونوت، ٢٨/١١/١٩٨٦، ملحق ٧ أيام، ص: ١٦–١٧): «من غير المعقول أن يتلقى تنظيم من أبناء الأحياء، تنظيم شرقي حقيقي، الاملاءات من «راكاح» الذي يبرر الغزو السوفييتي لأفغانستان. واذا كانت من وراء بيطون حركة ما كانت تسمح له بعدم التطرق لوقائع سياسية صعبة، وهذا مريح لـ «راكاح». تشارلي بيطون هو زينة مليئة بالحياة...».

«الفهود السود» كانوا رمزاً أكثر من أي شيء لمشكلة حقيقية آخذة في التضخم في الواقع الاسرائيلي في تلك الأيام، وهذا الرمز هو ما ادى الى نشوء الوعي، وكان هذا الوعي هو الخطوة الأولى لمعالجة مشاكل التمييز (....) ويجب ألا ننسى أن الكثير من الشعارات (التي طرحها الفهود - ع.ح.) طُبقت خلال السنوات. مواضيع مثل الدمج في التعليم ومشروع ترميم الأحياء لم يهبطا من السماء. هذان الأمران جاءا نتيجة الحاجة لمواجهة المشاكل الاجتماعية.

ليسوا لطفاء...

إثر النشر عن «الفهود» والشعبية الكبيرة التي حظوا بها، بادرت رئيسة الحكومة آنذاك، غولدا مئير، الى الاجتماع بوفد عن الفهود لتتعرف اليهم. فيما يلي نورد قسمًا من المحادثة التي جرت والتي امتدت على ثلاث ساعات. كل الفهود الذين شاركوا في المحادثة قالوا إن مئير لم تهتم بالمرة بالتنظيم وأهدافه ومطالبه، وانما اهتمت بمواضيع تتعلق بالأفراد وأسئلة لا تهدف الى شيء. أشبه ما يكون بالجلوس الى كائن غريب للتأكد من أنه لا يعض... حتى أن غولدا كانت ترمز في أحيان كثيرة الى حلول عينية لمشاكل الجالسين معها، في محاولة لشرائهم. وكل محاولات محاوريها لاطلاعها على أهدافهم وعلى الوضع الذي يرفضونه، باءت بالفشل.

ما نورده هنا هو مقدمة المحادثة، وورد في الجريدة الناطقة بلسان «الفهود»، «الفهد الأسود»، العدد الثالث، ٩/١١/١٩٧٢:

«الحضور: رئيسة الحكومة غ. مئير، الوزير ي. ألون، الوزير م. حزاني، ممثلو الفهود السود: إلباز يعكوف، مرتسيانو رافي، مرتسيانو سعاديا، ليفي دافيد، أفرجيل ريئوبين.

مئير: كلكم من القدس؟

أفرجيل:نعم، نحن نعتذر عن لغتنا الفقيرة، ولن نتمكن من التحدث بعبرية طلقة، وانما كما علمونا.

مئير: هل تدخنون؟

أفرجيل: نعم، شكرًا.

مئير: أنتم من مواليد البلاد؟

أفرجيل: كلنا من المغرب- أنا من الرباط، أريد أن أقول إنه منذ انطلاق صرختنا فان المشكلة معروفة لكم، ولكنها معروفة منذ زمن، وهي مشهودة منذ اطلاق صيحتنا فقط. الكل يعرف أن هناك بونًا اقتصاديًا واجتماعيًا وكل واحد يقول ذلك بالطريقة التي يراها صحيحة.

مئير: الى أية مدرسة ذهبت؟

أفرجيل: تعلمت حتى الصف الثالث فقط.

مئير: في أية سنة؟

أفرجيل: حتى سنة ٥٣ – ١٩٥٤.

مئير: ماذا فعلت بعد ذلك؟

أفرجيل: كنت في الشارع، في المحاكم، في السجون، في درب الآلام.

مئير: ألم تعمل؟

أفرجيل: بلى، عندما كان بمقدوري. فقط في أعمال البناء. ليست لدي القوة للاستمرار في العمل في البناء، أنا متزوج ولي ولد.

مئير: وماذا تفعل الآن؟

أفرجيل: عامل نظافة.

مئير: في البلدية؟

أفرجيل: في مبنى الطلاب الجامعيين، في كريات شموئيل، منذ شهرين – ثلاثة.

مئير: ماذا فعلت قبل ذلك؟

أفرجيل: تسكعت.

مئير: كنت مسجلا في مكتب العمل؟ ليس لديهم عمل ليعرضوه عليك؟

أفرجيل: هناك عمل في البناء وفي المصانع، لكن يدفعون هناك أربعمئة ليرة في الشهر ويعملون في المعدل هناك عشرين يومًا في الشهر فقط، فيصل المعاش الى ٣٦٠ ليرة فقط.

مئير: في أي مصنع عملت؟

أفرجيل: في بيتار فريدمان، وتركت المكان، وبعده في بيتار للأحذية الأميركية وتركت هذا العمل أيضًا.

مئير: متى عملت في فريدمان؟

افرجيل: المصنع الأخير الذي عملت فيه كان فريدمان وتركته قبل أربع سنوات. قبلها عملت في بيتار للأحذية الأميركية واماكن أخرى. لم يكفِني المعاش فتركت.

مئير: لديك ولد واحد؟

أفرجيل: نعم، عمره سنتان وتسعة أشهر.

مئير: زوجتك لا تعمل؟

أفرجيل: لا. ليست هناك روضات للأولاد ولذلك لا تستطيع الخروج للعمل.

مئير: وقبل ولادة الطفل؟

أفرجيل: نحن متزوجان منذ ثلاث أربع سنوات وليس لعشرين سنة.

الوزير م. حزاني: اذا وُجد مكان للطفل في الحضانة ستذهب زوجتك للعمل؟

أفرجيل: نعم كانت ستخرج للعمل.

مئير: بماذا عملت قبل الزواج؟

أفرجيل: عندها أيضًا عملت في التنظيف، هناك تقييدات كثيرة تقف أمام أمثالي: لا نريد مخصصات أو تكرمات، نحن أصحاء وبوسعنا العمل، نريد الفرصة للتطور. لم نأت للحديث عن عملي الشخصي، لو كانت هذه مشكلتي- لكان الوضع ممتازًا. هناك مشكلة عند الطائفة السفارادية، التي تشكل ٦٥٪ من السكان في البلاد، ووضعها سيء وأبناؤها يعيشون في خط الفقر، عندما يعيشون على أربعمئة ليرة في الشهر. الحديث يدور هنا عن عائلات ذات عشرة أولاد وأكثر. هذا لا يكفيهم للمعيشة. تجولت في أحياء الفقر ورأيت، مع أنني لم أتجول في الماضي الا أنني أفعل ذلك اليوم لأن الأمر يثير اهتمامي.

مئير: من أين حصلت على الاسم؟

أفرجيل: منّا نحن. جلسنا وفكرنا وهناك بعض الاصدقاء الذين وصلوا سويةً الى استنتاج... أن أناسًا مثلنا، أو سفارادیم منّا جربوا بقواهم الذاتية بمختلف الأسماء مثل «ف ش» (رئيسة الحكومة: ماذا يعني ذلك؟) من أجل السفارادیم أو العراقيين. أحزاب مختلفة حاولت ولم يستجب لهم أحد. قالوا ها هو واحد آخر يقوم، يريد الوصول الى الكنيست على حساب المظلومين والمساكين. نحن ليست لدينا الاحتمالات للوصول الى الكنيست. عانينا ورأينا كل ما مرّ علينا، عندما عشنا على الحدود قبل ٢٢ سنة، وبعد أن وصلنا الى البلاد نحن نعيش بنفس الشروط حتى هذا اليوم. نحن في العائلة عشرة أشخاص وسبعة من أخوتي في مؤسسات للمجرمين. في المغرب لم يحدث لنا هذا ولم يكن ليحدث أن تصبح أختي فتاة شوارع.

مئير: كيف وصلتم الى إسمكم؟

أفرجيل: هناك تنظيم «كاتمون من أجل كاتمون» وتنظيمات أخرى قامت حتى اليوم، وكلها اختفت أو خملت. هذا الاسم هشٌ ومثير.

مئير: من أين حصلتم على هذا الاسم؟

أفرجيل: هذا اسم هشٌ.

مئير: ألم تسمعوا عن هذا الاسم في مكان آخر؟

أفرجيل: نحن نعرف عنهم، أنهم يدعمون «فتح» وضد اليهود.

مئير: لماذا أخذتم الاسم اذًا؟

مرتسيانو: لأن هذا أعطانا القوة، لاثارة ضجة من حولنا، وأن تكون ردود لأفعالنا.

أفرجيل: بالنسبة للاسم، من المعقول أننا نحمل ٤٠٪ من أيديولوجيا «الفهود السود» في الولايات المتحدة الاميركية، الذين كانوا مظلومين أيضاً ومسحوقين وهناك حقيقة أنهم عنيفون ونحن لا...

مئير: هم لا ساميون ايضًا.

أفرجيل: نحن مخلصون لدولتنا ووطنيون ونحبها. وحقيقة أننا نعي المشكلة التي تقيد أولادنا وتقيدنا، ونريد لولد من المرجح أن يذهب الى السجن، أن يكون صحيحًا ويمكن تطويره- تدل على ذلك. أنا، في ضوء الحقيقة أنني لم أكن أملك ما يؤكل، وكنت أتجول في الشارع وأذهب الى سوق السيارات، لسرقة حبة بندورة (رئيسة الحكومة: والدك لم يعمل؟) في سنة ١٩٥٢ أصبح معاقًا. جئنا من المغرب في سنة ١٩٤٨، وأعاقونا في الجزائر بسبب الحرب هنا. مع انتهائها وصلنا الى برديس كاتس. في المغرب كان أبي سباكًا. في البلاد لم يعمل في البداية. كنا في برديس حانه وبقينا هناك لأشهر عديدة. والدانا كانا تعسين وبحثا عن مكان عمل ووجدا في القدس حيًا باسم المصرارة، لم يعش فيه ناس. اقتحمنا، عدة عائلات، نفس

الحي، وعلى بعد خمسين مترًا من هناك كان شارع شفطيه يسرائيل. رممنا المباني وسكنّا هناك. أبي دخل الى البيوت التي على الحدود، وأخذ ما تركه هناك لاجئون عرب. في أحد الأيام وقع عليه قسم من السقف الذي انهار وكسر أضلاعه ومن وقتها لا يعمل.»

بعد اللقاء قالت غولدا مئير إن «الفهود لم يكونوا لطفاء». فبعد أن تبين لـ «الفهود» أن مئير غير معنية بسماع مطالبهم، وانما معنية بحل مشاكلهم بشكل عيني، ثارت عصبية «الفهود» وقاموا من أماكنهم وبدأوا بالصراخ. مئير كانت منذهلة! مرتسيانو: «عندما وصلنا الى اللقاء أخذني رجال مكتب رئيسة الحكومة جانبًا وحالوا أن يبرموا صفقةً معي. تحدثوا معي عن محطة وقود في ايلات، عن أربع شقق». «دعك من كل هذه الأمور وساعدنا لتهدئة الوضع. طلبوا لكنني رفضت عروضهم. في تلك الفترة كانت لدي مئات العروض لأضمن حياتي بشكل جيد ولكنني رفضت.» (معاريف، ١٩٩٤/٩/٢٦، الملحق، ص: ١٨-١٩)

الخلاصة

الآراء حول «الفهود» لم ولن تكون متشابهة. وما يبرز هو عِظم التفاوت في هذه الآراء، ليس بين المؤسسة وبين مؤيديهم فقط، بل بين المؤيدين بداخلهم وبين أعضاء المؤسسة نفسها. «بمعرخاه»: «اذا كان هناك انجاز يمكن للفهود أن ينسبوه الى أنفسهم في مرحلة زمنية قصيرة، هو نجاحهم في إثارة المشكلة بشكل دراماتيكي والتحوّل بذلك الى وسيلة سرّعت من عملية الاستيقاظ عند جمهور خامل. «الفهود السود» كانوا رمزًا أكثر من أي شيء لمشكلة حقيقية آخذة في التضخم في الواقع الاسرائيلي في تلك الأيام، وهذا الرمز هو ما ادى الى نشوء الوعي، وكان هذا الوعي هو الخطوة الأولى لمعالجة مشاكل التمييز (....) ويجب ألا ننسى أن الكثير من الشعارات (التي طرحها الفهود – ع.ح.) طُبقت خلال السنوات. مواضيع مثل الدمج في التعليم ومشروع ترميم الأحياء لم يهبطا من السماء. هذان الأمران جاءا نتيجة الحاجة لمواجهة المشاكل الاجتماعية. من هذه الناحية أدى «الفهود» وظيفة تسريع، ورفعوا مشكلة الظلم الى منزلة مشكلة اجتماعية قومية يجب التعامل معها ويجب حلها.»

كما أن أسباب اضمحلال الحركة ستبقى كثيرة ومتداخلة، ولكن العامل الشخصي لعب دورًا لا يُستهان به في تفكيك الحركة. تشارلي بيطون بقي عضو كنيست بعد التحالف مع «راكاح» مدة ١٦ سنة، مرتسيانو كان عضو كنيست مدة سنة واحدة فقط (مع «شيلي»).

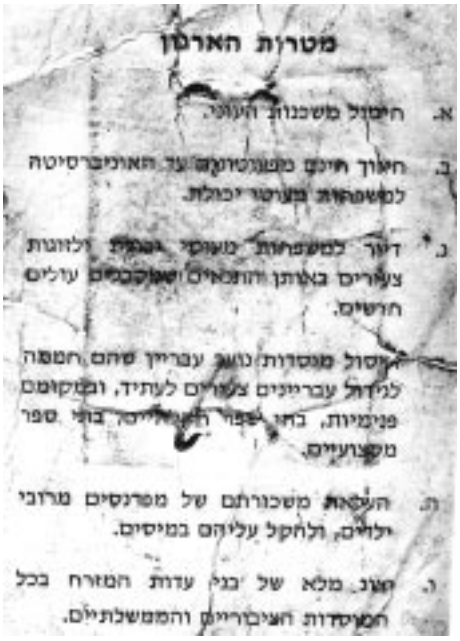

מטרות הארגון
א. חיסול משכנות העוני.
ב. חינוך חינם מגן-טרום-חובה עד האוניברסיטה למשפחות מעוטי יכולת.
ג. דיור למשפחות מעוטי יכולת ולזוגות צעירים באותם התנאים שמקבלים עולים חדשים.
ד. חיסול מוסדות נוער עבריין שהם חממה לגידול עבריינים בוגרים לעתיד, ובמקומם פנימיות, בתי ספר חקלאיים, בתי ספר מקצועיים.
ה. העלאת משכורתם של מפרנסים מרובי ילדים, ולהקל עליהם במיסים.
ו. ייצוג מלא של בני עדות המזרח בכל המוסדות הציבוריים והממשלתיים.

بيان اهداف الحركة: البند الاول: القضاء على احياء الفقر

الباقي تفرقوا أيدي سبأ. شيمش يعيش في ضنك وفقر في تل أبيب وأفرجيل يعمل ويعيش بتواضع في القدس. يبدو أن بيطون هو أكثر المستفيدين من الحركة. مرتسيانو: «هذا الرجل (بيطون) باعنا بأبخس الأثمان. في نظري، انضمامه الى «راكاح» كان خيانة. تشارلي وصل الى ما وصل اليه لأنه باع نفسه لـ «الجبهة» (معاريف، ٩/٢٦/ ١٩٩٤، الملحق، ص: ١٨-١٩). تشارلي بيطون: «ما زالت هذه مشاكلنا حتى اليوم (الانتشاء والغرور وقلة التنظيم– ع.ح.). أنا من دعا الجميع طيلة الوقت للانضمام الى اقامة حركة كبيرة. فأنا ما زلت فهدًا أسودَ. قائمتي في الكنيست تحمل الاسم «الفهود السود». ولكن في كل مرة أدعو أحدًا للانضمام اليّ، أكون كمثل الذي يقف على سلم ويمد يده للواقف في الأسفل ليرفعه اليه، فيحاول الآخر أن يشده الى الأسفل اليه» (حدشوت، ١٩٩٢/٧/٢ الملحق، ص: ٨٣-٣٩). دافيد مئيري: «فجأة تنظمت حركة احتجاجية، فجأة بدأت الحشود بالوصول الى المظاهرات. فجأة اتضح أن الحديث لا يدور عن مشكلة حي، بل عن مشكلة قطرية. الحركة غصت بالتأييد الجارف. النقود بدأت بالوصول. طواقم تلفزة من كل العالم بدأت بالوصول الى قبو الحركة لتصويرهم. رجال فكر داعبوهم. أريبه زاكس، ماكس فوغل، عاموس كينان، دان بن أموتس، أفرهام أوفك. كلهم. طلاب جامعيون وبروفيسورات ورجال مقهى «طعمون». رجال ذوو أطباع جنائية التقوا فجأة بالأخيار من رحافيا وبيت هكيرم. والنتيجة كانت الفشل. عندها بدأت الدعوات الى خارج البلاد. التشريفات والتضييقات والصراعات حول السيطرة على الحركة. ليس أن «الفهود» لم يبنوا تنظيمًا جيدًا،

بل أنهم لم يملكوا تنظيماً بالمرة. الانتشاء والغرور من جهة وقلة التنظيم من جهة أخرى زرعا بذور التفكك.» (المصدر السابق)

الاستعراض السابق في هذه المقالة، يقودنا في النهاية الى المقارنة الحتمية بين «الفهود» وبين «هكيشت» من ناحية الطروحات الجوهرية المتشابهة، ومن ناحية الاختلاف (الجوهري أيضاً) في آليات العمل- وبالتالي المحصلة النهائية للتجربتين. الجيل الجديد من الشرقيين المحتجين ضالع أكثر في ماهية المؤسسة الاسرائيلية، في العمل الجماهيري وفي ترسيم الأهداف وآليات تحقيقها. في النهاية، «هكيشت» هي استمرار طبيعي لـ «الفهود» وهي في الوقت نفسه بداية جديدة ومتميزة للاحتجاج المنظم والمحلولة نواحيه حتى النهاية...

ملاحظات:

(١). اعتمدت في الكثير من التفاصيل وتسلسل الأحداث على مقال بعنوان «الفهود السود؛ الصراع والاحتجاج في المجتمع الاسرائيلي»، من تأليف دفورا برنشطاين، والذي نُشر في مجلة «مغموت»، ١٩٧٩، العدد ٢٥، ص: ٦٥-٨٠، ورأيت من عدم المناسب أن أشير الى كل اقتباس أو اعتماد على مقالها، في سياق المقالة، مما اقتضى الاشارة.

(٢). هذا يذكر بالطبع بوضع ومكانة مقاولي الأصوات العرب الذين يروجون للأحزاب الصهيونية في المجتمع العربي، في الأمس واليوم- وهذا باب آخر واسع...

(٣). يُضاف الى ما ذُكر، تعامل «الاشكناز» مع «السفاراديم» قبل اعلان الدولة وأثناء استيعابهم، كمجموعة متخلفين يحتاجون الى اعادة التأهيل، وهناك من نادى بوقف هجرتهم حفاظاً على الدولة. ولكن هذا الجانب طُرق في المقالة السابقة «الشرقيون يتهمون!» في العدد الثاني من هذه المجلة، في ربيع هذه السنة، في الصفحة ٦١.

(٤). هذا باب جدير بأن يُطرق اليوم، في أعقاب استعادة «شاس» (حزب «السفاراديم» اليوم) لهذه المعادلة. من المثير تتبع هذا المنهج ومدى خصوصيته للمبنى الطبقي والاجتماعي الاسرائيلي.

المراجع:

١ . نشرة الاحصائيات السنوية الصادرة عن مكتب الاحصائيات المركزي. ١٩٧٣,

٢ . الصحف التالية، وورد تاريخ الاقتباس في متن المقالة: «عال همشمار»، «يديعوت أحرونوت»، «معاريف»، «حدشوت»، «بمعرخاه»، مجلة «نظرية ونقد».

٣ . مناشير أصدرتها حركة «الفهود» وورد تاريخها في متن المقالة.

٤ . هليفي، ن. وكلينوب-ملول، ر.، التطور الاقتصادي في اسرائيل. القدس، أكاديمون، ١٩٧٥.

5. BEN DAVID, Y., “Ethnic Differences or Social Change”. In: Frankenstein, C. (ed.), Between Past and Futre. Jerusalem, The Henrietta Szold Foundation for Child and Youth Welfare, 1953.

6. ETZIONI-HALEVI, H., “Protest Politics in the Israeli Democracy”. Political Science Quarterly, 90, 1975, pp. 497-520.

7. MEDDING, P., Mapai in Israel- Political Organization and Government in a New Society. Cambridge, Cambridge University Press, 1972.

8. PATAI, R., Israel Between East and West. Westport, Conn, Greenwood, 1970.

9. ROSENFELD, H. and CARMI, S., “The Privatization of Public Means, the State Made Middle Class, and the Realization of Family Value in Israel”. In: Peristiany, (ed.), Kinship and Modernization in Mediterranean Society. Rome, The Centre for Mediterranean Studies, 1976.